

الفصل الحادى عشر

التمهيد للفتح وللإمبراطورية

الحد الشمالى
لبلاد العرب

ألف الناس من أقدم الحقب فى التاريخ أن يروا الحد الشمالى لبلاد العرب ممتدّاً من أعلى خليج العقبة إلى أعلى الخليج الفارسى فى شماليهما . وليس هذا الحد ممتدّاً فى خط مستقيم ، بل هو يتبع سلسلة الجبال التى تفصل بين صحراء النفود^(١) وبادية الشام . وقد كانت دومة الجندل بالخوف أعلى المدائن التى تتاخم هذا الخط ، وذلك فيما خلا العصور التى كانت الشام والعراق منضمّتين فيها إلى الدولة العربية .

وأهل الشام الأصليون من الفينيقيين . وأهل العراق الأولون من الأشوريين . ولقد كانت الصحراء التى تترامى بينهما ، وهى بادية الشام ، تحول فى العصر الأولى دون التقاتلها وامتزاجهما . فاجتياز الصحارى ليس أمراً محبباً إلى أهل الحضر . وفيم يجتازونها ويتعرضون لأخطارها وليس فيها من أسباب الحياة ما يجذب النفس إليها ! وإن كثيرين ليفرون حتى اليوم من اجتياز هذه البادية بالسيارة ، ويؤثرون النقلة بين الشام والعراق على متن الهواء .

على أن هذه الصحراء التى لم يتهو إليها الفينيقيون من أهل الشام ولا الأشوريون من أهل العراق فى العصور القديمة ، قد استهوت العرب أهل البادية ممن يرون الصحراء الطليقة سحراً ووحياً وحرية وجمالاً ، ويرون الحضر قيئاً بل سجنّاً وإن لبست فيه الشفوف . والمؤرخون يذكرون هجرة العرب إلى الشمال لانتهيار سد مأرب ، ونزوح قبائل الأزد التى جرفها السيل إلى الحجاز وإلى الشام ؛ أو لاتخاذ الروم البحر طريقاً للتجارة بدلا من البادية . وهم يذكرون أن هذه الهجرة حدثت فى القرن الثانى المسيحى . ومع التسليم بهذه الرواية ، فلا ريب فى أن قبائل من العرب استقرت ببادية الشام قروناً

مجرة العرب إلى
بادية بالشام

(١) صحراء النفود ، كما نعرفها اليوم ، هى بادية السماوة المعروفة فى كتب العرب أو تقرب منها .

طويلة من قبل ، متخلفة عن القوافل التي كانت تنزل العراق أو الشام للغزو أو للتجارة .

وقد أقام العرب الذين نزحوا إلى الشام وإلى العراق على حدود الحضر في كل من الدولتين . ولم يكن مقامهم على هذه الحدود مما اضطرتهم إليه سياسة الدولة التي نزلوا بها ، وإنما جذبتهم البادية إليها فلم يستطيعوا مقاومة سحرها ، واستهواهم الحضر ليكونوا على مقربة منه كي ينالوا رزقهم دون مشقة أو عناء . وذلك شأن أهل البادية في كل عصر . وأنت إذا التمت منازلهم اليوم بمصر أو بالشام أو بالعراق أو بأي بلد يتصل فيه الزرع برمال الصحراء ، رأيتها على شفا الصحراء بين الحضر والبادية ، ورأيت أهلها يولون شطر البادية وجوههم ويمعنون فيها بقوافلهم حيناً بعد حين . وكأن الوراثة البدوية المتغلغلة في نفوسهم والحرارية مع الدماء في عروقهم ، تأبى عليهم أن يستقروا وأن يسكنوا إلى ما يسكن أهل الحضر إليه من نظم الجماعة . وطبيعتهم هذه تفرض عليهم ألواناً من الشظف ما كان أغناهم عنها لولا ما يجذونه في فسحة البادية من حرية مطلقة ومن اتصال بالوجود غير المحدود . ينهض عندهم عرضاً عن كل شظف ، ويهون عليهم كل مشقة .

ملكة بني غسان
وملكة الحيرة

ولم تلبث بادية الشام حين انتشرت فيها قبائل العرب الذين هاجروا إليها أن صارت كأنها قطعة من شبه الجزيرة . وكان الغسانيون أقوى هذه القبائل عنصراً ، وأكثرهم على الحياة صبراً وجلداً . لذلك أقاموا مملكة بني غسان على حدود الشام ، كما أقام اللخميون ملك الحيرة على شواطئ الفرات . ولقد كان دأب هؤلاء العرب يومئذ كدأب بني وطنهم دائماً ، يشاركون الأمة التي يقيمون على حدودها في مصيرها ويشاطرونها آمالها . من ثم سلموا في الشام بحكم الروم ، وفي العراق بحكم الفرس . وإنما كان ذلك منهم تسليمًا بالأمر الواقع أكثر مما كان إذعاناً لغلب المنتصر ؛ لذلك كانت الأوضاع السياسية تتغير في أمرهم تبعاً لقوتهم وضعفهم ، وكان لهم أكثر الأمر استقلال ذاتي حرصوا عليه ودافعوا عنه .

ومن العجب في أمر البدوي أنه ، على تعلقه بالبادية وحبه إياها وانجذابه

إليها كلما بعد عنها ، شديد الإعجاب بالحضر وما يحيط به من زروع نضرة ، وما يبدو على أهله من نعمة ورفاه عيش . وأقد كان حديث الشام وحنّاتها وأعتابها وحورها العين مما لا يفتأ أهل مكة والمدينة وسائر بلاد الحجاز يتذاكرونه بعد رحلة الصيف ، يقص نبأه من اشترك في الرحلة ، ويرويهِ الرواة عنهم بعد ذلك ، فإذا شفاه السامعين تنفرج ، وحقق عيونهم يتسع . وريقهم يتحلّب ، شوقاً لهذه الحضرة النضرة ، والمياه الجارية ، والأيدى الناعمة والحدود الملساء ، أن يكون لهم مثلها في بلادهم . وكأنما غاب عنهم أن باريّ النّسم قسم الرزق بين الناس بالعدل ، فجعل لأهل البادية الحرة الشاملة وإباء الضمير ، يقابلهما شطف لا يصدّ عنهما ولا يقلل من الرغبة فيهما والحرص عليهما ؛ وجعل لأهل الحضر الرفاهية والنّعمة والنظام والأمن ، يقابل ذلك قيود للحرية في كل مظاهرها ، ثم لا ينزع الناس إلى تحطيم هذه القيود حرصاً على النّعمة وعلى الأمن .

حرس القبائل
التي هاجرت إلى
بادية الشام على
حياتها العربية

كان ذلك شأن القبائل التي هاجرت إلى العراق وإلى الشام على تفاوت بينها في التعلق بالبادية . ومع أن أكثرها نعم بالحضر وترفه ، لقد ظل حرصها جميعاً على حياتها العربية شديداً ، كما ظلت العلاقات بينها وبين شبه الجزيرة متصلة على القرون . وليس من غرضي أن أفصل ذلك في هذا الكتاب . فنطاق البحث لا يتسع له ولا يقتضيه . وإنما أثبت منه هنا ما يجلو لنا بعض السر في تمهيد هاتين الإمارتين العربيتين ، إمارة اللخمين وإمارة الغسانيين . للفتح العربي والإمبراطورية الإسلامية في عهد أبي بكر .

أشرنا إلى أن هجرة العرب من الجنوب إلى الشمال ترجع إلى ما قبل انهيار سدّ مأرب ، وقبل تحويل الروم طريق التجارة من البر إلى البحر . والواقع أن هذه الهجرة أقدم بكثير من هذين الحادثين ، على ما كان لهما من جليل الخطر في حياة بلاد العرب ؛ فالنّسّابون يذكرون أن التنقل بين القبائل كان كثير الوقوع من قبل الإسلام ، وهو لا شك كان كثير الوقوع منذ أقدم العصور . فقد كان العرب يتعاملون مع البلاد التي تجاورهم ؛ إذ كانوا ينقلون تجارة الشرق الأقصى إلى بلاد الشام ومصر والروم ، وكانوا ينقلون تجارة الشام ومصر والروم

إلى الشرق الأقصى . وكانت هذه التجارة تسير مخترقة شبه جزيرة العرب في أحد طريقيين : طريق حضرموت إلى البحرين على الخليج الفارسي ثم إلى الشام . وطريق حضرموت إلى اليمن فالحجاز إلى الشام . وكانت مكة تنوسط هذا الطريق الثاني ، وكان أهل الجنوب من الحضارمة واليمنيين وأهل عمان والبحرين هم السابقين الأولين للقيام بهذه التجارة ذلك بأنهم كانوا أكثر من أهل الشمال حضارة ؛ لخصب أرضهم ، ولاتصالهم بالفرس اتصال جوار مباشر . لذلك كانت أكثر القبائل التي هاجرت إلى العراق وإلى الشام واستقرت بهما من قبائل الجنوب . فالغساسنة الذين أسسوا مملكتهم شرق الشام كانوا من الأزد ، إحدى قبائل عُمَان التي تنسب إلى شعب كهلان اليمنى . كذلك تنسب قبائل قُضاعة وتَنُوخ وكلب التي استقرت على حدود الشام إلى شعب حمير اليمنى ، وطبيعياً أن تستقر قبائل الجنوب بالعراق ؛ فإن العراق يجاور حضرموت وما اتصل بها من قبائل بني حنيفة وتغلب ومن إليهم .

قبائل الجنوب من شبه جزيرة العرب هي التي هاجرت إلى بادية الشام

هاجرت بطون من هذه القبائل منذ العصور الأولى إلى بادية الشام ، واستقرت بها مستقلة عن سلطان أولى السلطان في حضر العراق وفي حضر الشام . فلما انهار سد مأرب ثم انقسمت التجارة بين طريق البادية وطريق البحر ، هاجرت بطون أخرى وقبائل أخرى إلى الحجاز ، ثم هاجرت بعض هذه البطون منه إلى الشام ، التماساً لرزق أوفر وحضارة أكثر وأرفه من حضارة البادية .

وكان السلطان في العراق وفي الشام متداولاً بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومية . فكانت فارس تنتزع الشام من الروم أحياناً وتضمه إلى العراق التابع لها . وكان الروم ينتزعون العراق من فارس أحياناً ويضمونه إلى الشام التابع لهم . وكان العرب الذين نزحوا إلى بادية الشام ينضمون في كثير من الأحيان إلى جيش الفرس أو جيش الروم ، متأثرين بما في طبيعتهم من ميل إلى الغزو والسلب . وأدّى ذلك إلى أن فكرت الدولتان في اتخاذ هؤلاء الذين نزحوا إلى البادية الممتدة بينهما سداً يحول دون اعتداء إحداهما على الأخرى ، لتبقى الشام خالصة للروم ، والعراق خالصة لفارس .

اتصال العرب الذين نزحوا إلى بادية الشام بفارس والروم

على أن هذه القبائل العربية انحازت بحكم منازلها في البادية إلى أقرب حضر لها ؛ فانحاز المقيمون على حدود الشام إلى الروم ، وانحاز المقيمون على حدود العراق إلى فارس ، مع احتفاظهم باستقلالهم الذاتي ، ومعيشتهم البدوية ، وحياتهم العربية الخالصة .

لم يحل احتفاظهم بهذه الخصائص دون تأثيرهم بحياة الحضر القريب منهم ، وسياسة الدولة التي يخضع هذا الحضر لها . بل لقد تغلغل في هذا الحضر من أنيس منهم في نفسه الكفاية لامثال حياة الحضر والاضطلاع بأعبائها ، وبلغ من ذلك أن امتد سلطانه وعظم في المملكة نفوذه . وإن المؤرخين ليزكرون أن الإمبراطور الروماني فيليب كان عربياً من بني السميذع أول من عرف التاريخ من العرب الذين هاجروا إلى الشام ، وأنه كان قبل ارتقائه عرش الإمبراطورية رئيس عصابة في تعبير الغربيين . ورئيس قبائل تغير وتغزو في تعبير العرب . وأعلى ذلك من مكانة العرب المقيمين بالشام ، وإن لم يصرفهم عن البادية ولم يُدبجهم في حضارة الروم .

أما العرب الذين أقاموا على حدود العراق ، فلزموا البادية ولم يجازفوا بالدخول إلى حوض الفرات كي لا يخضعوا لسلطان الفرس فيه . وظل ذلك دأبهم حتى كانت الفُرس مسرحاً لثورات وحروب داخلية اتصلت بين ملوكها وزعماء الطوائف فيها . وقد تغلب زعماء الطوائف واستقلوا بأمر الفرس ، كل منهم في ناحيته . وأتاح ذلك للعرب أن دخلوا حوض الفرات وأنشؤوا على شاطئه مدينة الأنبار ، ثم أنشؤوا الحيرة .

ولعل قبائل من هؤلاء العرب كانوا من الأسرى الذين جاء بهم الفرس حين غزواتهم الأولى لجنوب شبه الجزيرة . فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن الملك بُخْتَنَصَّر الثاني غزا شبه الجزيرة وعاد منها بالأسرى ، وأنزلهم على شاطئ الفرات فأقاموا الأنبار ؛ ثم إنه نقلهم من الأنبار جنوباً فأنشؤا مدينة الحيرة^(١) .

(١) يذكر المسعودي أن بختنصر لم يكن ملكاً بل كان مرزباناً على العراق للملك كيخسرو ، وأنه حارب العرب باسم كيخسرو وأسر منهم . ويخالف الطبري وبعض مؤرخي العرب هذه الرواية =

وأياً كانت الرواية الصحيحة فالثابت أن العرب بدأ سلطانهم يستقر في العراق من ذلك الحين ، وأنهم استقلوا بالأمر غرب الفرات بين الأنبار والحيرة حين تولى أمرهم جدّيمة الأبرش أو الوضّاح بين سنة ٢١٥ وسنة ٢٦٨ ميلادية . وقد جمع جدّيمة كلمتهم وامتدّ سلطانه فيهم من الحيرة إلى الأنبار إلى عين التّمر ؛ وبذلك اشتمل غرب الفرات كله إلى بادية الشام . بل لقد امتدّ سلطانه على العرب المقيمين بهذه البادية حين غزا مُضَرّ المقيمين بها ، وضم إليه منهم عدى بن ربيعة وشرّقه وأكرمه .

جدّيمة الأبرش
يضم غرب الفرات
تحت سلطانه

وعدىّ هذا هو الذى تزوج الرّقّاش أخت جدّيمة ، فتناولت كتب الأدب نبأهما بآثار روائية شائقة ، وهو الذى أولدها عمرو بن عدى صاحب قصة الزبّاء التى انتحرت قائلة : « بيدى لا بيد عمرو » .

بينما جدّيمة الوضّاح على ملك العرب بالعراق ، كان أذينة ابن السّميدع على رأس العرب بالشام ، وكان سابور عاهل فارس ، وفيابى لإمبراطور الروم . وقد ثار أهل الشام بسطان فيليب لقسوة حكمه . وانتهاز سابور الفرصة فسار إلى الشام وهزم جند الروم . عند ذلك نقض أذينة عهد ولائه للروم وانضم للفرس ، وطمع في أن يكون له في ظل سابور من المكانة بالشام ما للجدّيمة بالعراق . على أن فالريان تولى إمبراطورية الروم مكان فيليب ، وسار بنفسه إلى الشام وهزم سابور وردّه إلى فارس . عند ذلك عاد أذينة موالياً للروم . غير أن الدوائر ما لبثت أن دارت على فالريان . وأراد أذينة أن ينضم إلى سابور كرامة أخرى . فرفض سابور ولاءه بعد الذى رآه منه . ولم يجد أذينة بداً في محافظته على سلطانه وعلى حياته من أن ينهض بنفسه على رأس عرب الشام لمحاربة فارس . وبسّم له الحظ فغلبها وطارد جيوشها إلى المدائن . بذلك سمّت مكانته عند الروم . وصار صاحب القيدح المعلنّى في محاربة الفرس . حتى لقد تغلّب

أذينة بن السّميدع
على رأس العرب
بالشام

= ويذهبون إلى أن تبعاً الأول سار من اليمن على رأس بطون من لحم وجذام وعاملة وقضاعة والأزد وغيرهم ففزا جانب العراق انخاوا للبحرين ، ثم إن جنده تحيروا ، أى أقاموا على شاطئ الفرات . ولما عاد تبع إلى اليمن هُزِلت بطون من هذه القبائل فأقاموا بالحيرة حيث تحيروا . وفي رواية عن ملوك الطوائف أن الإسكندر الأكبر هو الذى أقامهم حين غزا فارس إذ أقر كل مرزبان على ناحية وجعله ملكاً على أهلها ليفرق كلمة الفرس ويجعل بعضهم لبعض عدواً فلا يشورون به ولا يتفقون على سلطانه .

عليهم من بعد ذلك كرةً أخرى .

وحكم بعد أذينة أبنائه ، ومنهم الزبّاء . وقد استهوت إليها جديمة ودعته ليتزوجها ، ثم قتلته ، فكان جزاؤها أن ذهب إليها عمرو بن عدى ومعه قصير بن عمرو فانتحرت حتى لا يقتلها . وبوفاتها انقضى عهد بني السمبدع بالشام .

وخلف الغسانيون من أبناء جفنة بني السميدع على ملك الشام ، بعد فترة قصيرة حاول جماعة من بني نصر القامين بأمر العراق أن يتولوا أثناءها أمر الشام ، فلم يستقر لهم فيه أمر .

تمهيد هؤلاء
العرب بالعراق
والشام للفتح
العربي
والإمبراطورية
الاسلامية

نقف هنيهة ها هنا ، في منتصف القرن الثالث الميلادي ، لنرى كيف صار الأمر في شرق الشام وغرب العراق إلى العرب . فهؤلاء الذين نزلوا البادية أول ما نزلوها قبائل مهاجرة أو أسرى جاء بهم مارك فارس من شبه الجزيرة ، قد صاروا إلى حيث يعتد بهم الروم وتعتد بهم فارس ، وتحصر كلتا الدولتين على ولائهم لها ومناصرتهم إياها ، وتعترف كلتاها لهم بالاستقلال الذاتي تقديرًا لشجاعتهم وإقدامهم في الحروب . والحق أنهم لم يكونوا في صلتهم بهاتين الإمبراطوريتين العظيمتين دون اليمن أو حضرموت أو غيرهما من بلاد شبه الجزيرة التابعة لنفوذ فارس ، بل لعلهم كانوا أكثر منها استقلالاً . وأنت لذلك تستطيع أن تقول إن بلاد العرب امتدت من خليج فارس وخليج عدن جنوباً إلى الموصل وأرمينية شمالاً ، وإن تأثّر عرب العراق وعرب الشام بحضارة الفرس وحضارة الروم أكثر مما تأثّر بهما سائر بقاع شبه الجزيرة .

السنا في حلّ ، وذلك هو الشأن ، من أن نقول إن هؤلاء العرب في العراق والشام كانوا الطلائع الأولى في التمهيد للفتح العربي والإمبراطورية الإسلامية ؟ لم يدُر ذلك بخلد أحد منهم بطبيعة الحال . فلم يكن أحد منهم يتصور بعث محمد ورسالته ، وما أدى إليه البعث وأدت إليه الرسالة من وحدة بلاد العرب ومن سمو النفس العربية إلى حيث سمت . لكن مقامهم بين الفرات وأودية الشام ، واحتفاظهم بخصائص حياتهم العربية ، واتصالهم بأهلهم وبمن يحيطون بهم في شبه الجزيرة ، كل ذلك كان مقدّمة لما تلاه بعد أربعة قرون من

زحف عرب الجزيرة إليهم محاربين لتحلّ الإمبراطورية الإسلامية محل الإمبراطوريتين الفارسية والرومية .

تولى عمرو بن عدى ملك العراق بعدّ جذيمة الأبرش من قبل سابور ، فانقم لجذيمة من الزبّاء ، كما قدمنا . وقد جعل عمرو الحيرة عاصمته ؛ ومن يومئذ صارت عاصمة اللخمين إلى أن انحل الملك عنهم .

وكانت تبعيّة عمرو بن عدى ومن جاء بعده من ملوك الحيرة لبلاط فارس محدودة ، فكان صاحب الحيرة مطلق السلطان على غرب الفرات إلى بادية الشام وكان ولاؤه لعاهل الفرس مقيداً بدفع العرب من شبه الجزيرة أو عرب الشام التابعين لإمبراطور الروم عن أرض فارس ، وبحماية التجارة التي تسير من فارس إلى الشام أو إلى بلاد العرب .

ملوك الحيرة لم
استقلال ذاتي مع
تبعيتهم لفارس

على أن هذا الولاء لم يحل دون اقتحام العرب أرض فارس ، وبخاصة ما جاور منها الخليج الفارسي . وقد صدهم الفرس غير مرة ، ثم اضطّر سابور ذو الأكتاف إلى حفر خندق سابور على حدود بلاده ليصدّ عنها العدوان .

وتوالى الملوك من بني نصر على عرش الحيرة ، حتى تولاه النعمان الأكبر في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس المسيحي . وقد تولاه من قبّل يزّد جرد . والنعمان الأكبر هو الذي بنى قصرى الخورنق والسدير ، وهو صاحب قصة سينمار .

النعمان الأكبر
صاحب الخورنق
والسدير

ويرى أن النصرانية بدأت تنتشر بالعراق في عهده ، وأنه لان لها وعطف عليها . فأنشئت فيها برصاه أديار وبيع . بل إن بعضهم ليذهب إلى أنه تدبّن بالنصرانية ، ثم تقشّف ونزل عن ملكه لابنه المنذر الأكبر^(١) ، وذلك حين رأى يزّد جرد يضطهد النصرانية ويحارب الذين يدينون بها .

وكان يزّد جرد قد بعث بابنه بهرام جور إلى الحيرة لينشأ فيها ، وحذق

(١) أشار عدى بن زيد الشاعر إلى نزول النعمان الأكبر عن ملكه في قصيدة جاء فيها :

تدبر رب الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدى تفكير

سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير

فارعى قلبه فقال وما غبطة حى إلى الممات يصير

بهرام العربية واليونانية وأحاط بشئون العرب والروم خُبْرًا . فلما مات يزدجرد أثر الفرس أن يولّوا عليهم كسرى بن أردشِير بن سابور ذى الأكتاف ، لأنه نشأ بينهم حين كان بهرام غريبًا عنهم . وسار بهرام يسترد عرشه وأعانه المنذر . فلما اعتلى العرش نصّح له المنذر أن يعفو عن خصومه ؛ بذلك كسب بهرام قلب الخاصة ، ثم كسب قلب الشعب بأعطياته وبتخفيفه من أعباء الضرائب .

وبالغ بهرام جور فيما بدأه أبوه من محاربة النصرانية ، فكان ذلك سببًا في نشوء الحرب بين فارس والروم . وأعان المنذر بهرام في هذه الحرب التي انتهت إلى صلح بين الفريقين طال أمده .

كان ملوك العرب من بنى غسان بالشام يناصرون الروم في محاربتهم الفرس ، كما كان اللخميون يقاتلون الروم حلفاء بلخيش فارس . ولعل الحروب اشتدت في هذه الفترة الأخيرة بين الإمبراطوريتين أن زاد العامل الديني أوارها . فنذ تولى قسطنطين إمبراطورية الروم في أوائل القرن الرابع الميلادى بدأت المسيحية تزدهر . وبدأ أباطرة الروم يُعلون من شأنها في كل مكان ، وبدأ المبشرون بها ينتشرون في مختلف البلاد . وانتقلهم من الشام إلى العراق وإلى بلاد فارس هو الذى هاج يزدجرد لمناهضة هذا الدين الجديد ، وهو الذى جعل بهرام جور يغلو في محاربته ، حتى ينتهى الأمر إلى ذلك الصلح الذى أشرنا إليه .

ماذا كان موقف العرب في العراق وفي الشام من دين الفرس ، ومن دين الروم ؟ أتأثرت قبائل العراق بالمجوسية فأقبلت عليها ، وتأثرت قبائل الشام بالمسيحية فأقبلت عليها ؟ أم أعرض هؤلاء وأولئك عن المجوسية والمسيحية جميعًا ، واحتفظوا بوثنيتهم العربية ، وبأصنامهم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلّى ؟

للجواب عن هذا السؤال قيمة كبرى في البحث الذى نتناوله الآن . فهو يكشف عن اتجاه العقلية العربية وعن ميول العرب الروحية ، ويحاول لنا كيف مهدت هذه العقلية وهذه الميول للفتح العربى في ظل الإسلام .

موقف العرب
بالشام والعراق
من دين الفرس
ودين الروم

ذكرنا أن العرب تأثروا في العراق وفي الشام بحضارة الفرس وحضارة الروم .
فن عرب العراق من أجادوا الفارسية ، وفقهوا تيارات التفكير الفارسي في
الفن والأدب والدين ، وتبينوا مستنوية ماني وتعاليم زردشت وزندقة مزدك .
ولم يكن ذلك عجيباً وقد أتاح لهم رغد العيش وترفه أن يتثقفوا ، وأن تبلغ بهم
ثقافتهم علم هذا كله وعلم ما اتصل بهم من تفكير اليونان وفلسفتهم .
ولذلك علم أهل الحيرة قريشاً الزندقة في الجاهلية والكتابة في صدر الإسلام^(١) .
وكان ذلك شأن عرب الشام في اتصالهم بثقافة الروم وأدبهم ودينهم .
بل لعلهم كانوا أرقى عقلية من عرب الحيرة ؛ لأنهم كانوا أقرب اتصالاً بالثقافة
اليونانية والمدنية الرومانية .

لماذا هوت النفس
العربية إلى
النصرانية

لم يأخذ عرب العراق بمجوسية الفرس مع اتصالهم بهم وإعجابهم بحضارتهم .
ولم يأخذ عرب الشام بوثنية الروم أو اليونان ولم يعبدوا آلهتهم . فلما استقرت
المسيحية في الإمبراطورية الرومية هوت إليها النفس العربية في الشام والعراق
جميعاً . فلماذا ؟

يذكر بعض المؤرخين أن أول ملك تنصّر من بني غسان إنما تنصر لأن
إمبراطور الروم لم يكن يرضى عن ولاية غير نصراني في أنحاء الإمبراطورية .
وإذا فسر هذا تنصر أمراء العرب فإنه لا يفسر تنصر القبائل . فإن قيل إن
قبائل الشام تنصرت مجازاة للموكة ، فالناس على دين ملوكهم ، فقد تنصر من
قبائل العراق كثيرون يدينون بالولاء للملك الحيرة . وكان يحارب النصرانية حليفاً
لفارس . لا بد إذاً من دافع آخر أدى بهذه القبائل العربية في العراق لتدين
بالنصرانية ، وأن يكون هذا الدافع متصلاً بالعقلية العربية وميوها الروحية .

والعقلية العربية بفطرتها بدوية مستقيمة ، تريد الحقيقة في بساطة . وتقصد
إليها في غير التواء ولا تعقيد . فزندقة مزدك ومثنوية ماني قد تستهوى من يعجبهم
الحوار ويغريهم الجدل . وكذلك الأمر في فلسفة اليونان . ولا تحيل العقلية العربية
إلى هذا التعقيد الجدل . لهذا هوت إلى النصرانية وأخذت بها واطمأنت إليها ،
ولم يدن بالمجوسية من العرب إلا قليل .

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٢٣ ، نقلاً عن الأعلام النفسية لابن رسته .

والنصرانية دين سماوى أصحابه أهل كتاب أقرّ الإسلام صفاءه الأول ؛ فلا عجب أن يكون أخذ العرب بها فى العراق وفى الشام من طلائع التمهيد للفتح العربى وللإمبراطورية الإسلامية .

على أن سبق العرب للنصرانية فى العراق والشام لم يغير من خصائصهم ، ولم يصرفهم عن استقلالهم وعن تعلقهم بحياتهم العربية . تولت الأميرة العربية ^{تعلق العرب باستقلالهم وبحياتهم العربية} ماوية بنت الأرقم بن الحارث الثانى أمر العرب بالشام فى أواخر القرن الرابع المسيحى ، فطمع الروم فى ملكها ، فحاربته حتى اضطرتهم لمصالحتها ، ثم أمدتهم بفوارس لمحاربة القوط الطامعين فبهم . وقد دافع هؤلاء الفرسان العرب عن القسطنطينية دفاعاً مجيداً .

ولم يكن حرص الغساسنة على استقلالهم الذاتى إزاء الروم ، وحرص اللخمين على استقلالهم الذاتى إزاء فارس ، ليجمع بين هؤلاء العرب وأولئك ؛ ولم يجمع بينهم اشتراكهم فى الميل للمسيحية ؛ بل كانت الحروب تتصل بين اللخمين والغسانين اتصالها بين فارس والروم . أليست القبيلة أساس العمران العربى ! فكما كان عرب شبه الجزيرة قبائل يقاتل بعضهم بعضاً ، كان عرب بادية الشام قبائل يقاتل بعضهم بعضاً .

اللخمين
والغسانين
فى ذروة المجد

فى الثلث الأول من القرن السادس المسيحى بلغ اللخميون ذروة المجد فى العراق ، وبلغ الغساسنة ذروته فى الشام ، وكان ذلك فى عهد المنذر الثالث اللخمى والحارث بن جبلة الغسانى . تولى المنذر الثالث ابن ماء السماء ملك الحيرة بين سنة ٥١٣ وسنة ٥٦٢ ميلادية فى عهد قباذ ، ثم كسرى أنوشروان . وتولى الحارث بن جبلة زوج مارية ذات القرطين ملك الغساسنة بين سنة ٥٢٩ وسنة ٥٧٢ ميلادية ، فى عهد جستنيان ، ثم فى عهد جستين الثانى . وكان هذا الحارث يدعى الحارث الأعرج ، كما كان يدعى الحارث الوهّاب .

فى هذا العهد ظلت الحروب متصلة بين الفرس يخالفهم المنذر ، والروم يخالفهم الحارث . وكان المنذر فى هذه الحروب شديد البأس قوى الشكيمة ، بلغ من ذلك أن فرض الصلح الذى تم بين الفرس والروم جعلاً سنوياً يدفعه الروم للمنذر .

استمر هذا الصلح زمناً قوياً فيه الروم واشتد ساعدهم وخشيم كسرى ،
فدفع حليفه المنذر فحارب الحارث وتغلب عليه . ثم عادت الحرب فشبت بين
الروم والفرس كرة أخرى إلى سنة ٥٦٢ م . وكان المنذر في هذه الأثناء لا يهدأ
عن الحرب ، يحارب خصومه ، ويحارب خصوم فارس ، ويوغل في ممتلكات
الروم حتى يبلغ حدود مصر .

لم تخفض قوة المنذر من قدر الحارث عند الروم ؛ فقد ظل في نظرهم القوة
التي يواجهون بها عرب العراق . ولذلك ولاه الإمبراطور جستنيان منذ
سنة ٥٢٩ م ملكاً على جميع قبائل العرب في سوريا ، وجعل له لقب فيلارك
وبطريق (Phylarque et Patrice) وهو اللقب الذي يلي لقب الحاكم الروماني
في الشام .

فكّر الحارث في التخلص من المنذر . أما وهو لا يستطيع ذلك في ميادين
القتال . فليجعل الغدر سلاحه . فبينما كانت الحرب ناشبة بينهما يوماً أوفد مائة
من رجاله عطرتهم ابنته حليلة ليلقوا ملك الحيرة ويبلغوه أن ملك الغسانيين يدع
له . وانتهازاً لحدسهم فرصة غال فيها المنذر وقتله . عند ذلك اضطرب جند العراق ،
فهاجمهم الحارث وشتت شملهم ؛ وذلك يوم حليلة^(١) .

بلغ مجد العرب المقيمين ببادية الشام وما جاورها من أرض العراق
وأرض الشام غاية ذروته في هذا العهد . وقد أبرز الأدب الجاهلي هذا المجد في
كل جلالة .

فالمنذر هو صاحب يوم النعيم ويوم البؤس ، وهو الذي قتل عبيداً
الأبرص في يوم بؤسه ، وهو صاحب قصة شريك بن عمرو ؛ وكان كثيرون
من شعراء شبه الجزيرة يؤمنونه . وقد عاصر الحارث الوهاب النابغة الذبياني
وعلقمة الفحل .

آخر ملوك الحيرة تولى عمرو بن هند ملك العراق بعد أبيه المنذر الثالث ؛ وفي السنة التاسعة
من حكمه ولد رسول الله . ومن بعد عمرو تولى بنو المنذر على ملك الحيرة حتى

(١) راجع كوسان دبرسفال في تاريخ العرب ج ٢ ، ص ١١٣ - ١١٤ . وتاريخ الحيرة
وتاريخ غسان بعض ما استفاد دبرسفال مستنداً إلى المصادر العربية واليونانية والأوربية .

تولاه أبو قابوس النعمان بن المنذر الرابع صاحب الشاعر الأعشى ميمون بن قيس بين سنة ٥٨٣ وسنة ٦٠٥ م . وقد امتد ملك النعمان في بلاد فارس حتى بلغ دجلة حيث بنى مدينة النعمانية على مقربة من المدائن عاصمة كسرى . وكان النعمان على قبح صورته مترفًا ولوعًا بمتع الحياة ولينها . تزوج امرأة أبيه المتجرّدة ذات الجمال البارع ، فأحبت المُنسَخَل اليشكري فقتله النعمان . وأنشأ النعمان الحدائق الغناء وجلب إليها أبهج الزهر ، فشقائق النعمان تنسب إليه .

لم يرض كسرى أبرويزَ عما بلغ النعمانُ من سلطان وما يرفل فيه من نعمة ، فحبسه وقتله ، ثم قضى على سلطان اللخمين جميعًا . ولقد قام مقامه على ملك الحيرة إياس بن قبيصة ، وأقام معه مرزبانًا فارسيًا يدعى بهرجان . وفي عهد إياس بُعث النبي ، وفي عهده كان يوم ذى قار ، ثم كان إياس آخر ملوك الحيرة من العرب . فقد قام داذويه الفارسي من بعده مرزبانًا على العراق من قبَل كسرى .

ويوم ذى قار من أيام العرب الماثورة . ذكروا أن النعمان بن المنذر أودع أمواله وحرّبه هاني بن قبيصة حين عرف غضب كسرى عليه . فلما قُتل النعمان طالب كسرى هانيًا بودائع هاني . ثم إن بني بكر بن وائل غضبوا لقتل النعمان فأغاروا على سواد العراق فنهبوا منه . وأراد كسرى معاقبتهم . فالتقت جيوشه بهم في ذى قار . ففاز العرب على الفرس فوزًا عظيمًا . يروى عن النبي عليه السلام أنه قال في يوم ذى قار : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونُصِرَت عليهم في »^(١) . ذلك أن النبي عليه السلام بُعث عام ذى قار .

ذلك كان مصير اللخمين بالعراق . أما الغسانيون بالشام فظلوا يتولى الأمر منهم أمير بعد أمير ، حتى كان جبلة بن الأيهم حاكم عرب الشام عند ما فتحه عمر بن الخطاب . تولى منهم عمرو الأصغر في سنة ٥٨٧ م ، فلجأ إليه النابغة الذبياني هربًا من النعمان بن المنذر صاحب الحيرة ؛ وتولى بعده أبو كرب النعمان السادس ابن الحارث الأصغر ، ففاز من النابغة بخير مدائحه . ثم توالى

الغسانيون إلى آخر عهدهم

(١) مروج الذهب للمسعودي . الجزء الأول ص ٢٣٦ طبع بغداد .

عدد من الأمراء تدل كثرتهم على اقتسامهم ملك الغساسنة بالشام . حتى انتهى أمرهم إلى الأيهم الثاني ثم إلى ابنه جبلة بن الأيهم .

ولعل تقسيم السلطان في الشام بين عدة أمراء من العرب كان بعض سياسة الروم في عهود كثيرة ، حتى لا يناوئ العرب الإمبراطورية بوحدهم . يرجح ذلك أن الغسانيين لم تكن لهم عاصمة بالشام كما كانت الحيرة عاصمة اللخمين بالعراق ، بل كانت الجابية عاصمة ، وكانت تَدْمُرُ عاصمة ، وكانت جَمُولان عاصمة ، وكانت جِلْدَق على مقربة من دِمَشْق عاصمة . وهذا يتفق مع السياسة المركزية التي جرت عليها إمبراطورية الروم ، كما تتفق سعة السلطان لصاحب الحيرة مع سياسة اللامركزية التي جرت عليها الإمبراطورية الفارسية .

ذكرنا فيما سلف أن عرب العراق وعرب الشام استمسكوا باستقلالهم الذاتي وبحياتهم العربية . لذلك ظلت لغة أهل شبه الجزيرة لغتهم ؛ فلم تمحها الفارسية في العراق . ولم تمحها اليونانية أو اللاتينية في الشام . وكان من أثر هذا أن ظَلَّتْ صِلَات ملوك الحيرة وصلات بني غسان بشبه الجزيرة وثيقة ، وظل الذين يُشيدون بذكر هؤلاء الملوك وينالون جوائزهم هم شعراء شبه الجزيرة . وكتب الأدب ودواوين الشعراء تروى للنابعة الديباني ولأعشى قيس ولعلقمة الفحل وغيرهم كثيراً مما قيل في هؤلاء الملوك وكرمهم وما بلغوا من حضارة وترف . وحسان بن ثابت شاعر النبي كان وثيق الصلة بجبلة بن الأيهم قبل إسلامه .

كان احتفاظ هؤلاء العرب الذين هاجروا من شبه الجزيرة إلى بادية الشام بخصائصهم وبحياتهم ولغتهم العربية . من الطلائع التي مهدت للفتح العربي والإمبراطورية الإسلامية . وسرى من بعد كيف انضم هؤلاء العرب في كثير من الأحيان لجيوش المسلمين ، وكيف حاربوا في صفوفهم من كانوا حلفاءهم من الروم والفرس .

الفرس والروم هل تأثرت علاقات فارس والروم بالقضاء على ملك الحيرة ؟ كلا ! بل بعد تضعف سلطان العرب ظلت الحروب متصلة بينهما بعد ذلك ، كما كانت متصلة بينهما سبعة قرون

متوالية من قبل . كانت إمبراطورية الروم لذلك العهد مسرح قلق واضطراب شجع الفرس على غزو الشام . وكان فوكاس إمبراطور الروم يومئذ في شغل بثورة هيرقل عليه . لذلك أوغل الفرس في بلاد الشام . فاستولوا عليها وانحدروا منها إلى ناحية بيت المقدس يحاصرون المدن ثم يأخذونها عنوة . وتولى هرقل حين كان الفرس في مسيرتهم إلى القدس فلم يستطع ردّهم أو منعهم من تخريب آثار المسيحية واليهودية بالمدينة المقدسة . ثم إن اليهود انضموا إلى المجوس وأعانواهم على النصارى . فلما استقر الأمر لكسرى بالشام ، فتح مصر وحل بسلطانه محل الروم فيها . وفي هذه الانتصارات المتوالية للفرس على الروم نزل قوله تعالى :

«الْمُ غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ » .

وصدق الله العظيم . ففي بضع سنين عاد هيرقل فحارب الفرس وأخرجهم من مصر ومن الشام ، وطاردهم إلى المدائن ، واسترد منهم الصليب الأعظم ، ثم رده إلى بيت المقدس في حفل حافل . لذا تضعضع سلطان الفرس وإن استفد ذلك من قوة الروم ما كان بالغ الأثر في التمهيد للفتح العربى والإمبراطورية الإسلامية .

موقف أبى بكر
من فارس والروم

لم يتغّب علم ما نزل بالروم ، ثم بالفرس عن أهل مكة والمدينة . ولم يغب عنهم كذلك أمر بنى عمومته من العرب ببادية الشام وما جاورها من العراق وبلاد الشام . وقد هوّن ذلك من أمر الإمبراطوريتين العظيمتين في نظرهم . وزاد في تهوين أمرهما قيام النّبى العربى وانضواء بلاد العرب كلها تحت لواء الإسلام . لكن ما هان من أمر الإمبراطوريتين لم يبلغ بالعرب حد التحرش بهما أو التفكير في غزوهما ، وإن بلغ بهم حد اليقين باستقلال شبه الجزيرة عنهما والدود عن هذا الاستقلال في وجهيهما . لذلك ألفت اليمن وألفت بلاد الجنوب كلها بنير فارس ، ثم اتجه جلّ غرض الرسول عليه السلام إلى تأمين التخوم العربية في الشمال من جنود قيصر . ولم يدر بخواطر المسلمين أن يغيروا على الشام ، أو أن يتخذوا من دعوة النّبى هرقل إلى الإسلام سبباً للإيغال فيه . ترى الصديق أبوبكر

أيقم أبو بكر على هذه السياسة لا يتعدها ، وله في رسول الله أسوة حسنة ، أم يغامر بحرب قيصر ، والنصر بيد الله يؤتیه من يشاء ؟

كان هذا الخاطر يدور بنفس أبي بكر حينما كان النصر يحالف أعلامه في حروب الردّة . فذ قضى خالد بن الوليد على مسيلمة باليمامة ، ومذ نشر المهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل لواء الإسلام في أرجاء اليمن وما جاورها ، أيقنت شبه الجزيرة كلها أن الأمر فيها صائر بإذن الله إلى خليفة رسول الله . لكن أبا بكر كان أحصف من أن يستنم لهذا النصر فينسى به ما تنطوى عليه صدور العرب من حفيظة قد تضطرم فتضرم الثورة كره أخرى . أو ليس من الخير أن تتجه أنظار العرب إلى ما وراء الحدود من شبه الجزيرة فتتسى بذلك حفاظها وتنسى أحقادها ! وبادية الشام تنتشر فيها قبائل من العرب ، فجدير بها أن تسمع الدعوة إلى الدين الجديد كما سمعها العرب في شبه الجزيرة . ولعل هذه القبائل إذ تتصل بأصولها وتسمع الحديث عن أجدادها ، تعود بها الذكري إلى الماضي ، فتسرع لتشارك بني عمومتهما فيما هداهم الله إليه من الحق ، وتشهد معهم أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

تفكير الصديق
فيما بعد حروب
الردة

كان هذا الخاطر يدور بنفس أبي بكر وهو في داره المتواضعة بالمدينة ، وكان يدور بنفسه وهو في مجلسه بالمسجد ، ثم كان يدور بنفسه وهو يجوب الأنحاء الفقيرة آناء الليل في سرّ من الناس ، يعين المحتاج ، ويأسو كلوم الجريح ، ويسكن أنات البائس والمسكين . ولم يستأثر هذا الخاطر بتفكير أبي بكر لأنه كان يحب السلطان لنفسه أو يطمع في التوسع فيه ، بل لأنه كان يريد أن يطمئن المسلمون إلى دينهم وحرية الدعوة إليه . وإنما تمّ للمسلمين الطمأنينة ما قام الحكم فيهم على أساس من العدل المجرد من الهوى . والحكم على هذا الأساس يقتضى الحاكم أن يسمو به فوق كل اعتبار شخصي ، وأن يكون العدل والرحمة مجتمعين . وقد كانت نظرية أبي بكر في تولى أمور الدولة قائمة على إنكار الذات والتجرد لله تنجداً مطلقاً ، جعله يشعر بضعف الضعيف وحاجة المحتاج ، ويسمو بعدله على كل هوى ، وينسى في سبيل ذلك نفسه وأبناءه وأهله ، ثم هو مع ذلك يتتبع أمور الدولة جليلها ودقيقها بكل ما آتاه الله من يقظة وحذر .

وكان حكم أبى بكر فى العام الأول من خلافته يكاد ينحصر فى القضاء على الردة والقائمين بها . وهل كان للمسلمين المقيمين بالمدينة ما يختلفون فيه وأهلهم جميعاً قد ذهبوا مجتدين يقيمون الثورة ويقضون على أسباب الفتنة ، وهم فى أثناء ذلك يتبعون أخبارهم ويقيمون الصلوات لنصرهم ! ! ولّى أبو بكر عمر بن الخطاب القضاء فى المدينة ، فأقام عاماً كاملاً لم يختلف إليه متقاضيان . وكان أبو عبيدة بن الجراح قائماً بأمر المال ، يتلقاه من الزكاة ، وينظر فى توزيعه على حاجات المسلمين . وكان عثمان بن عفان يكتب الأخبار للخليفة ، ويكتب زيد بن ثابت ما عداها . وقد كفاه عمّاله على البلاد والقبائل مؤونة إدارتها بما كان لهم من أمانة وحسن بصر بالأمور ، ثم كانوا على اتصال دائم به فى توجيه سياستهم . وقد رأيت الشيء الكثير من ذلك فيما كان بينه وبينهم من مكاتبات أثناء حروب الردة . وإذا كان أبو بكر فى شغل بهذه الحروب طيلة العام الأول من خلافته ، فقد أقام مقامه عتّاب بن أسيد عامله على مكة فى الحج بالناس ذلك العام .

لم يشغل أبا بكر عن حروب الردة شاغل إلا ما اتصل بها مما قصصنا نبأه حين الحديث عنها . أما وقد هان أمر المرتدين ولم يبق لأحد من أهل الحواضر والبادى أن يأبه لهم أو يخشى خطرهم ، أفلا يجمل بأبى بكر أن يغامر بحرب قيصر ؟ إنه إن يفعل يصرف أذهان العرب فى شبه الجزيرة كلها عن ثاراتهم ، ويجعل لهم من الفخار ما ينسيهم ضيغتهم على يثرب وأهلها ، ويمهد الطريق لانتشار كلمة الله فى الإمبراطورية الرومية المترامية الأطراف .

غزو الروم
مغامرة لا يسهل
الإقدام عليها

لكن غزو الروم مغامرة إن لم يخالف النصر فيها أعلام المسلمين تعرضت شبه الجزيرة لشر من الثورة التى أخمدتها حروب الردة : تعرضت للروم وحكمهم ، وتعرضت بذلك لكارثة تجتث حكم المدينة ، وقد تفتن المسلمين عن دينهم . ومنازلة الروم ليست هينة . إنما انتصر أبو بكر على المرتدين فى شبه الجزيرة لأن الإسلام قضى على الوثنية فيها ، ولأن البواعث التى أدت بطليحة ومسيلمة والعنسى إلى الثورة وجدت من قبائل هؤلاء المتنبيين من رأى ردتهم نقضاً لعهد عقده مع رسول الله ، حين ذهبت وفودهم إليه بالمدينة تعلن

الإسلام وتنضوي تحت لوائه . أما الروم فكانوا نصارى أهل كتاب كالمسلمين ، ثم كانوا إلى ذلك أصحاب الكلمة العليا في توجيه سياسة العالم لذلك العصر .

صحيح أنه قامت بينهم وبين فارس حروب استطالت على السنين ، كتب النصر في بُداعتها للفرس ، ثم انتهى الغلب فيها للروم . وقد استنفدت هذه الحروب من قوة الدولتين الكبيرتين ما يحتاج إلى الجهد الضخم والسنين الكثيرة لتعويضه . لكن للفوز في الحروب بريقاً يكلل هام المنتصر بأكاليل تبهر أنظار الناس ، وتصدهم عن محاربة من كان النصر حليفه . ولم تكن الأمة العربية قد جربت حظها في مثل هذه الحروب من بعد لتتقدم على مغامرة لها من الخطر ما يصد عنها ، بل ما يخيف منها .

ولم يرد التفكير في محاربة الفرس بخاطر أبي بكر ؛ فالحجاز لا يتصل بفارس . والبلاد العربية التي تناخم الفرس هي البلاد التي فشت فيها الردة ، ويتعذر لذلك أن يعتمد أبو بكر عليها أو يأمن أهلها في غزو دولة لا يزال لها ، مع ظفر الروم بها ، جيوش جرارة وموارد كثيرة . أفلا يجمل بالخليفة أن يوجه همه إلى توطيد الأمن في مختلف الأرجاء من شبه الجزيرة ، لتنضم كلها في وحدة تزيدها قوة وتزيد سياستها اتساقاً !

وإن أبا بكر ليفكر في هذا وفي مثله إذ ترامت إليه الأنباء بأن المشثى بن حارثة الشيباني قد سار بقواته شمالاً في البحرين ، حتى وضع يده على القطيف وهجر ، وحتى بلغ مصب دجلة والفرات ، وأنه قضى في مسيرته هذه على الفرس وعمالهم ممن عاونوا المرتدين بالبحرين . وسأل أبو بكر عن هذا المشثى من هو ، وإلى أى قبيلة ينتسب ، وعلم أنه من البحرين من بنى بكر بن وائل ، وأنه انضم إلى العلاء بن الحضرمي في مقاتلة المرتدين على رأس من بقى على الإسلام من أهل هذه النواحي ، وأنه تابع مسيره مساحلاً الخليج الفارسي إلى الشمال ، حتى نزل في قبائل العرب الذين يقيمون بدلتا النهرين فتحدث إليهم وتعاهد معهم . وعلم أكثر من ذلك أنه رجل جليل المكانة يعتمد عليه . قال عنه قيس بن عاصم المِثْقَرِيّ : « هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد . هذا المشثى بن حارثة الشيباني ! » .

المثثى بن حارثة
الشيباني يتقدم في
أرض العراق

جعل أبو بكر يفكر فيما سمعه من ذلك وفيما يمكن أن ينشأ عنه . وأدّى ذلك به إلى معاودة التفكير في دفع المسلمين إلى خارج شبه الجزيرة كيما ينصرفوا عن ثاراتهم الأولى وثورتهم بسلطان المدينة . ألا يستطيع هذا المثني أن يتوغل في العراق وأن يفتح للمسلمين أبوابه ما دامت أبواب الشام مستعصية ! فقباثل العرب في العراق من بني لخم وتغلب وإياد والنمر وبني شيبان تهوى نفوسهم إلى منابهم في شبه الجزيرة . ومن العراق انحدرت سجاج تُعلن نبوتها في بني تميم ، وتعتمد على أبناء هذه القبائل العربية التي نزحت إلى شواطئ الفرات . لعل البدء بتوجيه سياسة المسلمين إلى هذه الناحية يكون أجدى من كل توجيه آخر ! ولعل هذا المثني الشيباني يكون خير طليعة لتنفيذ هذه السياسة !

اضطراب الأمر
في فارس

وشجّع أبا بكر على العود إلى هذا التفكير ما يعلمه من أمر فارس صاحبة السلطان في العراق . فقد انتصر هرقل على الفرس قبيلاً وفاة النبي وحطم جيوشهم في نينوى ودستجيرد ، وسار حتى صار على أبواب المدائن عاصمة ملكهم . وقد بلغ من ضعف سلطانهم أن تخلصت اليمن من نيرهم وأن انضم بازان إلى رسول الله ، ثم لم يحركوا لاستردادها ساكناً . ومن بعد ذلك تقلص سلطانهم من البحرين ومن جميع الإمارات الواقعة على الخليج الفارسي وعلى خليج عدن ، ولم يفكر أحد من ملوكهم في استرداد شيء من هذا السلطان قلّ أو كثر . وكيف يفكرون والاضطراب ضارب بجرائه في بلاطهم ، يسعى كل أمير ليقول الجالس على العرش فيأخذ مكانه ؛ حتى لقد ادعى هذا العرش في أربع سنين تسعة من الأمراء كانوا يقتتلون عليه فيقتل بعضهم بعضاً ، جبهة حيناً وغيلة حيناً . لا عجب إذن أن يصح ما تحدث الناس به إلى أبي بكر عن المثني وفعاله . ثم لا عجب أن ينشط تفكير أبي بكر في العراق وفتحه .

مقدم المثني بن
حارثة إلى المدينة

وبينا يتأمل الخليفة الأمر ويظيل التفكير فيه ، إذ أقبل المثني إلى المدينة وتلقاه أبو بكر وسمع منه وعرف من أنبائه ما زاده اطمئناناً إلى أن البدء بفتح العراق العربي أدنى إلى النجاح ، ولن يلقى من المقاومة ما يلقاه التقدم في الشام . وليس العراق على شواطئ النهرين دجلة والفرات وفي الجزيرة الواقعة بينهما بأقل من الشام جمالاً ونصرة . وإذا لم يكن أهل الحجاز قد تحدثوا عنه ما تحدثوا عن

الشام لقرب الشام منهم ، ولأن الطريق إليه طريقتهم في رحلة الصيف ، فغداً يتحدثون عن العراق وتتجه إليه أنظارهم ما اتجهت إلى الشام . فليعزم الصديق إذن أمره ، وليتوكل على الله .

وكيف له أن يتردد وقد ذكره المثنى بأن قبائل العرب التي استقرت بدلنا النهرين الغنية بألوان الزرع والفاكهة وبالطير والحيوان ، مالت إلى الحضر والإقامة وعمل أبنائها فلاحين في الأرض ، وأن دهاقين الفرس يستولون على غملتها ، ولا ينال أولئك العرب منها إلا القليل الذي يجود الدهاقين عليهم به . أي مرعى أخصب من هذا المرعى لبث الدعوة العربية ، ولتأمين شبه الجزيرة من دسائس الفرس ومن عدوانهم ، فهؤلاء العرب وإن استقروا بأرض العراق يستجيبون لا ريب لكل دعوة عربية . ومعاملة الدهاقين لهم تُعَدِّدُهم للثورة بهم ، أما وقد أحسنوا السماع لحديث المثنى فالفرصة من ذهب ، يجب ألا تضيع ، بل يجب أن تتخذ خطوة لما بعدها .

ولئن حالف النجّاح المسلمين في هذه الخطوة لتكونن البشير بخطوات واسعة . فليست دلنا النهرين ، على خصبتها وحسن ثمرها ، أخصب العراق أو أجمله أو أحسنه ثمرًا ؛ بل إن دجلة والفرات ليجريان متوازيين قرابة ثلاثمائة ميل قبل أن يتصلا . ولا يقف أمر المناطق التي يتوازيان فيها عند الخصب الممرع الذي يجعل منها جنة دونها جنات الشام التي بهرت أنظار أهل الحجاز وسحرت قلوبهم ، بل إن بها من ذكريات التاريخ ما يثير الإعجاب في نفس من يسمع بها من أهل شبه الجزيرة ، بل من أهل الأرض جميعاً . وحسبك أن مدينة « أور » التي تكشفت في عصرنا الحديث عن آثار يقرنها بعض الناس إلى آثار الفراعنة ، تقع في هذه المنطقة . فإذا أنت سرت شمالاً لقيك بعد قليل من توازي النهرين آثار بابل القديمة ، ولقيك على شواطئ الفرات برج بابل قائماً يحدث عن عظمة الآشوريين ويروي تاريخ مجدهم . ونحن نتحدث إلى اليوم عن هذا البرج فيثير حديثه في نفوسنا العجب . ما بالك به من أربعمئة وألف سنة مضت ، وبما كان يثيره في النفوس حين كان العرب يسمعون حديثه !

ليس العراق أقل
إغراء من الشام

فإذا أنت تابعت السير على الفرات قابلتك المدائن عاصمة الفرس ومهد
الترف والنعمة لذلك العهد في العالم كله . فقد بلغ الفرس يومئذ من الترف
ما تبلغه الأمم حين تنحدر إلى ناحية التدهور والانحلال .

لعل الأسماء التي ذكرنا قد أثارت في نفسك صورة من العظمة التاريخية
لهذه البقعة التي تقع شمالي دلتا النهرين ، وأثارت كذلك فيها ذكر ما كان حول
هذه المدن من حداثى وكروم وزروع تمتد إلى الأفق زاهية الخضرة ، يبعث
أريج زهرها أرواح العطر إلى الهواء الذى تنتفسه .

أما وذلك بعض ما فى هذه البقاع من خصب جعل الناس يطلقون عليها
اسم « جنة الأرض » لكثرة غلاتها ووفرة خيراتها وبعض ما فيها من جمال يعدل
ما فى الشام أو يزيد عليه ، فقد رأى أبو بكر صدق ما يذكره المثنى الشيبانى ،
ورأى أن من الواجب على المسلمين أن يقوموا بتأمين العرب من أهلها . فإذا
استجاب هؤلاء العرب من بعدُ للدعوة الإسلامية ولم يصرفهم الفرس عنها فذاك ،
وإلا قاتل المسلمون الفرس ليكون الميدان لحرية الرأى فسيحاً ، وكلمة الحق
منتصرة لا محالة بالحجة والموعظة الحسنة .

رأى خالد
ابن الوليد فى
غزو العراق

واستشار أبو بكر أصحابه وعرض عليهم ما جاء به المثنى من الأنباء ،
وقوله له : « أمرنى على من قبلى من قوى أقاتل منى يلينى من أهل فارس
وأكفيك ناحيتى » . وتداول القوم المشورة بينهم ، فرأوا أن الأمر فى حاجة إلى
رأى خالد بن الوليد يكشف لهم عما يجب إذا قاوم أهل فارس المسلمين . وكان
خالد باليمامة مقبياً مع زوجته أم تميم وبنت مُجاعة ، يستجم بعد غزوة
عقرباء ، ويطمئن إلى العيش بينهما . وقد استدعاه أبو بكر على عجل
فحضر . ولم يتردد خالد حين عرف ما جاء المثنى فيه عن الإشارة إلى ما قد يترتب
من النتائج على مقاومة الفرس لجيش ابن حارثة . فقد يدعوهم انتصارهم إلى التفكير
فى استرداد نفوذهم فى البحرين وما جاورها . فأما إن أعد الخليفة للحرب عدتها ،
وجعل ما قام به المثنى من قبل طليعة فتح يلقى إليه المسلمون بقلد أكبادهم
فلا ريب عنده فى أن العراق سيفتح أبوابه : وفى أن العرب المقيمين به عاملين
فى الزراعة سيكونون من عوامل النصر لبني جنسهم .

وأتم أولو الرأى المداولة فيما بينهم ، وأقروا أبا بكر على تأمير المثنى . عند

ذلك أمره أن يتابع ما بدأه بين العرب من عهد ودعوة إلى الحق ، فكان أمره هذا الخطوة الأولى في فتح العراق . فأما الخطوة الخامسة فكانت توجيه خالد ابن الوليد على القيادة العامة لجيوش الفتح . وفعال خالد في العراق وانتصاراته على الفرس موضع حديثنا في الفصل التالي .

• • •

هذه الرواية في التمهيد لفتح العراق هي الراجحة في رأينا . على أن طائفة من المؤرخين يذهبون إلى أن المثنى لم يذهب إلى المدينة ولم يقابل أبا بكر ، وأنه أمعن في السير بجيشه في دلتا الفرات ، فلقية هُرْمُز ، فكانت بينهما وقعت نفي خبرها إلى أبي بكر . فلما سأل عن المثنى وعرف من هو وماذا كانت فعاله في البحرين أثناء حروب الردة ، أصدر أمره إلى خالد بن الوليد كي يخفّ إليه ، ويعينه على هُرْمُز ، وينصره والعرب الذين آزره ليريجهم من هذا الطاغية الفارسي . وهذه الرواية مرجوحة عندنا وإن كنا لا نقطع بعدم صحتها . فقد انتصر المثنى على الفرس ولم يكن في حاجة إلى مدد . وشجع انتصاره أبا بكر على التفكير في غزو العراق ، فأمر خالد أن يذهب إلى دلتا الفرات يعزز المثنى ثم يسير حتى يفتح الحيرة عاصمة العرب اللخمييين ، وأمر عياض بن غنم أن يسير إلى دومة الجندل يُخضع أهلها الذين تمردوا وارتدوا ثم يسير من هناك إلى الحيرة . وأى القائلين سبق صاحبه فله القيادة العليا وله الأمر في تلك البلاد . وإنما ذكرنا أن الرواية الثانية مرجوحة ، ولم نقل إنها غير صحيحة ، لما في الروايات التي انتهت إلينا عن ذلك العهد من الاضطراب . ولقد بلغ من اضطرابها حين الحديث عن فتح العراق ومقدماته أن تردد الطبري وابن الأثير وغيرهما فلم يرجحوا رواية على أخرى .

رواية أخرى
في فتح العراق

ويرى بعض المتأخرين من المؤرخين أن خالداً حين ذهب إلى دلتا الفرات لم تكن أمامه خطة مرسومة ولا غاية معينة ، وإنما ذهب مدداً للمثنى ينقذه وينقل جيشه . فلما انتصر على الفرس وتقدم إلى الشمال وبعث إلى الخليفة بالأخماس وبأنبائه كان هو الذي صور الفتح كيف يكون ، وهو الذي اتجه إلى الحيرة فما شأها . ولقد يُضعف من هذه الرواية أن أوامر أبي بكر إلى قواده

كانت صريحة دائماً في ألا ينتقل أحدهم من غزاة إلى ما بعدها إلا بإذنه . ذلك ما رأيناه في حروب الردة ، وذلك ما كان من بعدُ في فتح العراق والشام . فليس من الممكن مع هذا أن يكون فتح العراق فلتةً ، أو أن يسير خالد بن الوليد مستقلاً عن أوامر أبي بكر .

والآن فلنسير مع المشتى إلى دلتا النهرين . وعما قريب يلحقنا خالد هناك ليضرب الفرس في العراق ، ولينتقل منه إلى الشام فيمهد للقضاء على دولة الروم في آسيا القضاء الأخير .